هل تدين الاغريق *

للأستاذ دريني خشبة

لا نحسب أن أمة من الأمم شذت عن قانون التدين فلم تتخذ آلهة تعبدها وتمنو لها ، وتلتمس منها البركات ، أو على الأقل ، إنها تفزع إليه كلما مسها ضر ، أو حزبها أمر . والاغريق ، كـكل الأمم ، كانت لهم آلهتهم ومعابدهم وقديسوهم . وقد لا نستطيع أن نحصر الأقوال المتضاربة في حقيقة تدينهم ، وهل كانوا ، كالأمم السامية مثلاً ، يستغرقهم هذا التدين ، ويغمر أفكارهم وأعمالهم ؟

فالمشهور عن الأجناس الآرية أنهم قوم آداب رفيعة وفلسفة ، وبذلك امتازوا من الساميين المتدينين ، ومن المغول وآريي الهنود المتقشفين . على أن الأغريق ، من وجهة الدين ، ينقسمون إلى فئتين ، إن لم يكن أكثر ؛ فهذه الطبقة المستنيرة المثقفة ، التي ورثتنا تلك الثروة الطيبة من الشعر والأدب والفلسفة والتاريخ والفنون ، قد كان لها وجهة نظرها الخاصة بالنسبة إلى الدين . فلم يكن هوميروس مثلاً يعتقد في آلهة اليونان مثل ما يعتقد هسيود ؛ ولم يكن بندار كذلك ، يعتقد ما يعتقده أرفيوس أو تؤمن به الشاعرة سافو . وقد أثبت البحث أن هوميروس كان ينظر إلى هذه الجمهرة الكبيرة من أرباب اليونان ، وربّاتهم ، كما ننظر نحن إلى أشخاص درامية ازدحمت بها الميثولوجيا اليونانية ، وقدسها الشعب ، فرأى أن يستمد منها هذا الخيال الحلو الساذج ، ليكوّن منه مادة ملاحمه ، وليُضفي من هذا الخلود السماوي ، على فناء تلك البشريات الهالكة ؛ ولم يثبت أنه آمن بشيء منها . وذلك عكس ما ثبت من إيمان هسيود ، واحترامه الشديد لجميع الأرباب اليونانية . نقرأ ذلك في مواضع كثيرة من قصيدته الخالدة (الأرجا Erga) ومن درته العجيبة (الثيوجونية Theogony)

* رداً على ما وجهته الينا الآنسة ا . ش . فهمي — أسيوط من أسئلة عن طريق الرسالة بمناسبة (أساطير أغريقية) والكلمة ملخصة عن فصل من كتاب عن الأدب اليوناني يظهر قريباً

بل إن من الأغريق من أنكر هذا التهريج الميثولوجي ، وكفر بكل الثيوجونية اليونانية ؛ وهذا يوربيدز فخر أدباء اليونان وشيخ شعرائها ، قد كان من أشد الملحدين سخرية بمعتقدات الناس الدينية قاطبة

والشاعر الدرامي أسخيلوس قد حاول في إحدى روائعه المدهشة (بروميثيوس المصفّد) أن ينقد هذا الكمال المطلق الذي يضفيه قومه على كبير الآلهة زيوس ؛ بل هو يتهمه بالقسوة والوحشية وعدم الميل إلى ما ينفع العالم ؛ ويضرب لذلك أمثالاً طريفة مما جاء في الأساطير القديمة ، كأسطورة باندورا ويو[1] . ثم هذا صولون العظيم يلحد بزيوس ويجدف فيه تجديفاً يشبه السباب ، فيقول في الجزء الأول (ص ٣٢) : « إن الله حقود حسود ، وهو مشغوف أيما شغف بارباك الناس وترويعهم ! »

على أننا محاولون هنا أن نثبت المعتقدات الشائعة بين العامة ، وهي الفئة الثانية ، في هيلاس (اليونان) قبل القرن السادس (ق . م) . تلك المعتقدات التي مهما قيل فيها ، لم تخرج عن كونها ألواناً من الديانات البدائية الساذجة ، التي تشبه كثيراً مما دانت به الأمم الجاهلية

ولقد دلت الاستقراءات التاريخية على أن قدماء اليونان كانوا قوماً خائفين ، يخشون الآلهة ، ويرقبونها في كل أعمالهم ، وكانت الظواهر الطبيعية توحي إليهم بأحلام لاهوتية لا يستطيعون الافلات من ربقتها ، فكانوا يقيمون الهياكل الضخمة باسم القوى التي يزخر بها الكون من رياح وشمس وقمر ونجوم وبحار ... وكانوا يقيمون التماثيل الرائعة لآلهتهم في تلك الهياكل ، ويوكلون بها كهنة يؤدون الشعائر الخاصة بكل منها ، ويتقبلون القرابين والضحايا التي يتقدم بها الشعب المتدين البريء في كثير من المناسبات

ومن الأغاني والتراتيل الدينية التي تركها لنا الشاعر الغنائي أرفيوس ، نعلم أن عبادة ديونيزوس كانت ذات شأن كبير بين الغالبية العظمى من قبائل الأغريق . وديونيزوس هو إله النماء والخضرة ، وموسمه حين تنضر الحقول ، وتكتسي سندس

(١) سننشر هاتين الأسطورتين قريباً

القمح ، وتزدهر البساتين فتتفتح عن أفواف الورد ، كان موسم الرخاء والمرح ، وعيد الخير عند سائر اليونانيين ؛ لذلك تواضع المؤرخون على تسمية هذا اللون من ألوان العبادات (بعبادة القمح) ، ولما كان الثابت أن أحداً من الهيلانيين لم يعبد القمح بالذات فنرى أن هذه التسمية مجازية ، وأن من الخير للتاريخ أن نعرفها باسمها الحقيقي ، الذي هو (عبادة ديونيزوس) . وقد نشأت هذه العبادة ، أول ما نشأت ، في (إليزيس) Eleusis ، إحدى قرى (أتيكا) ، حيث كانوا يعتقدون أن أم القمح (أي حبة القمح :) وابنها (أي ساق القمح !) يتفضلان على الناس كل شتاء ، فيخرجان من بطن الأرض ليعم الرخاء وينتشر الخير . . .

وقد انتقلت عبادة باخوس ، إله الخمر ، من تراقيا إلى الجنوب ، ثم ما برحت تنتشر وتستفيض ، حتى تمازجت على مر الأيام بعبادة ديونيزوس . وصارت هذه (التثنية) ذات اعتبار كبير ولا سيما بين العامة . وصار هذا الإله المركب : «ديونيزوس ـ باخوس ! » هو رب القمح . . . والخمر . . . وإله الحقل . . . والكرم !

ومن دراسة الأدب الأغريقي في الأسكندرية وروما ، نعلم أن ديونيزوس ـ باخوس كان ذا شهرة مستفيضة في المهاجر اليونانية

أرفيوس ومذهبه : « الأرفزم »

ويسوقنا البحث في ديانة الأغريق إلى الكلام عن أرفيوس الشاعر الديني ، الذي تعتبر تراتيله في الشعر اليوناني كمزامير داود في العهد القديم ، ولأرفيوس ضريب قديم يدعى موسيوس Musæus قد يكون أشعر منه ، وأعلى في دولة الآداب كعباً ، ولكن ـ للأسف ـ لم يصلنا من آثاره ما نستطيع به الكشف عن شخصيته ، ولذا نشير إليه ، دون أن نعرض له بشيء . وحسبنا أن نذكر أن مؤرخي الأدب اليوناني يختلفون أشد الاختلاف حول أشعار أرفيوس ، وأكثرهم يرجح أن طائفة كبيرة من هذه الأشعار هي لموسيوس ، ونرجو أن يوفق الكاشفون من رجال الآثار إلى شيء يلقي النور على هذه الناحية المعتمة من تاريخ الأدب اليوناني

ولقد كادت ملاحم هوميروس وهسيود تكسف هذه التراتيل الدينية وتغمرها ، بل كادت تفقدها هذه القدسية التي يكنها العابد المتزمت لكل ماله علاقة بأربابه . وزاد الطين بلة ، تلك الفلسفة الخبيثة التي حملها الايونيون معهم حين غزوا بلاد الأغريق . فهي قد جرأت الكثيرين على التشكك في صحة معتقداتهم ، وغلا البعض فركن إلى العقل والعلم في النظر إلى الحياة والكون ، وما يزدحمان به من ظاهرات

بيد أنه حدث خلال القرن السادس قبل الميلاد ، من الأحداث اليونانية داخل البلاد وخارجها ، ما شجع الشعور الديني ، وقوى الأواصر بين الشعب وآلهته ، بعد إذ كادت تنحل وتتفكك على أيدي هؤلاء الملاحدة من شيعة الفلسفة الأيونيه . ذلك أن الحروب المستمرة التي مزقت أوصال البلاد ، وسقوط مدينة الترف وبلهنية العيش (سيباريس) Sybaris ، أغنى المدن الأغريقية على خليج تارنتوم الايطالي ، وإفلات مدينة نينوى من أيدي اليونانيين . . . كل ذلك حفز الشعور الديني ، وابتعث المعتقدات القديمة في صدور الدهماء والعامة ، فذكروا آلهتهم ، وخيل لهم أن ما حل بهم من ضنك ، إنما سببه إعراضهم عنها ، وانشغالهم بما هو أدنى ! ؟

ومن ثمة ، عمرت الهياكل ، وارتفعت فيها الأصوات بتراتيل أرفيوس ، ولهج الشعب المهيض بهذه المزامير يلتمس فيها عزاء وتسلية . وسرعان ما انتشر مذهب جديد أطلق عليه مذهب (الأرفزم) — نسبة إلى أرفيوس — هو لون طريف من عبادة ديونيزوس يؤمن أتباعه بالثواب والعقاب في الدار الآخرة ، وأس إيمانهم هو الاعتقاد بتجسد التثنية المركبة من الآلهين (ديونيزوس — زجريوس) . وزجريوس هذا هو ابن زيوس من البتول (!) كوريه ؛ وقد حدث أن التيتان (1) قد حنقوا على زجريوس فقتلوه ، فغيظ أبوه (زيوس) وسلط عليهم الصواعق حتى أبادهم ؛ وعاد فاستولده من إحدى بنات حواء (سيميليه) Semelê ، فعاش كما يعيش الناس ؛ وإن يكن قد بلغ مرتبة الآلهة وهو بينهم ، ثم رفعه أبوه إلى السماء (2) ، حيث صار فيها السيد الصمد ، والإله الأوحد

(1) Titans هم بعض أبناء وبنات (أورانوس) السماء وجي (الأرض) في الميثولوجيه — وهم مردة جبابرة

(2) ربما يذكر القارئ هنا عيسى عليه السلام

ولقد ظل (ديونيزوس ــ زجريوس) صاحب الشأن الأعظم فى الديانة اليونانية ، وتنوسى رب الخمر باخوس ، أو على الأقل ، تضاءلت أهميته ، لما كان يشاع عن ُعباده فى ترافيا من الفضائح المخزية ، والموبقات التى كانت تنخر كالسوس فى أخلاق الشعب ، وتصدع آدابه . ذلك أن كل فرد من عباد باخوس كان لزاماً عليه كطقس من طقوس هذه العبادة المخزية ، أن يستبيح عرض واحدة من عابداته ، اللائى كن يطلق عليهن لقب (ميناد) Maenad ، فاذا كان الليل ، وبدأت الحفلات الدينية ، انطلقت الشهوات المكبوتة ، وتدفق دم الدعارة حارًّا فى عروق هؤلاء وهؤلاء ، وراحوا يمارسون أحط ألوان البغاء باسم الشعائر الدينية ؛ وكثيراً ما كان يعتدى على أعراض الحرائر ، فلا يستطيع الزوج أو الأب أو الأخ دفع المنكر عن عرضه ، لأن ذلك كان من صميم شريعة باخوس ! !

لهذا ، اعتبرت شريعة ديونيزوس ــ زجريوس ، منبع الطهر الروحى ، والتهذيب الصوفى الجميل ، وحافظت على مكانتها ، كديانةٍ عامة لليونان ، منذ قبيل القرن السادس (ق . م) إلى مابعد القرن الرابع . وكان لها قديسوها وعلماؤها ، بل وأنبياؤها أيضاً ، إن صح أن نطلق هذه التسمية فى تاريخ الديانة اليونانية ؛ ولقد كانت الغالبية ــ حتى من العلماء والأدباء ــ تتناول أبحاثها فى الأرفزم بكل تأدب واحتشام . وشذ أفلاطون وحده ، عند ما ثار ضد ما كانت تبيحه هذه الشريعة ــ أو قل هذا المذهب ــ من الغفران وقبول التوب ، لمجرد طقوس تافهة يقوم بها أحد العصاة الآثمين

وكما يطلق العامة فى العالم الاسلامى لقب (واصل) أو (صاحب سر) على كل من زكت نفسه ، وطابت سريرته ، وصفا ما بينه وبين الله ، من المسلمين ؛ وكما يفعل مثل ذلك إخواننا النصارى ؛ وكما يذهب الى هذا النحو ربّيون من اليهود وأحبار ، فكذلك كانت سنّة اليونانيين ؛ فكل من تعمّق فى عبادة ديونيزوس ، واستبحر فى تحصيل شريعته ، وكان مع ذلك تام التُّقى ، شامل الورع ، ارتفع إلى طبقة باكيس كما يرتفع المخلصون من ُنسّاك الهند إلى مرتبة (مهاتما) . ويبدو أن هذه تقاليد قديمة تغلغلت فى المذاهب الحديثة التى نشأت فى هيلاس بعد القرن السادس (ق . م) . آية ذلك أن كل من كان يستبحر فى عبادة باخوس Bacchus يصبح باخس Bacchos ، وكل من كان يخبت للإلـه (كيبيب) إلـه فرجيا ، يصير كيبيبُس Kybêbos وقد انتقلت هذه السنُّة إلى أتباع مذهب الأرفزم ، فأصبح كلٌّ من حوارييه يحمل لقب أرفيوس . . .

ويمثل ما تدر أخلاف الرزق ، السهل الميسر ، على (واصل) المسلمين ، وأحبار اليهود ؛ فكذلك كانت القرابين والضحايا والزكوات تقدم بكثرة هائلة ، ومن جميع طبقات الشعب ، إلى الباكيس والباخس والكيبيبس والأرفيوس من رجال الكهنوت اليونانى . وكانت هذه الأعطيات والمنح ، تقدم فى مناسباتٍ غريبة ، لا تختلف عما هو شائع بيننا اليوم . فهذا يريد الاستفسار عن حلم رآه ، وذلك يطلب وصف دواء لعلة استعصت على نطس الأطباء ، وثالث يطلب نبوءة عما تنتهى اليه شدة حلت به ، إلى آخر هذه العلل والأسباب

والمامة محلى بأشعار ماقبل التاريخ من الأدب اليونانى ، تشعر بمدى ما كانت متأثرة به من شتى المذاهب الدينية ، وصنوف العبادات الساذجة التى تفعم هذا الأدب القديم . وأثارة الأرفزم شديدة الوضوح فى هذه الأشعار ؛ وأشعار أرفيوس خاصة ، تشبه عندنا أشعار عمر بن الفارض ، وهى ترتيلات كان يرسلها الناظم إلى أربابه سلاماً فى سلام ، اسمع اليه يتناجى :

« أدعوك يا هيكاتيه يا ربة الطرق
« يا حامية مفترق الشّعاب
« يا باعثة الأمن فى ديجور الظلام
« أيتها المسيطرة على السموات والأرضين والبحار
« يامؤنسة الموتى فى قبورهم ، ميّاسة فى الوشائح المصفرة
« وأنت يا برسيفه ، أضرع اليك
« يامن تؤثرين الهدوء والسكون
« أيتها المليكة التى تقبض على مفاتيح الدنيا
« ألا هلمى ، وكونى معنا ، إذ نسبّح باسمك
« كيما تطهر نفوسنا ، وتنقى قلوبنا

« باركينا يا برسيبه ، وأفيضي علينا مما فاض به قلبك الكريم من محبة . . . .

ويشك بعض المؤرخين فى انتشار مذهب الأرفزم قبل القرن السادس (ق . م) . غير أن الأناشيد الدينية القديمة تثبت أنه كان لهذا المذهب أشياع كثيرون ومريدون ، بل لقد كانت الآداب تتأثر به فى غير صقع من أصقاع اليونان . وهذا نشيد (الأليمونيس Alemoenis) دليل على ذلك ؛ فلقد ظهر فيه اهتمام الشاعر الذى أنشده بطقوس التطهير ، وشدة حرصه على إيراد ما كان أهل التقى يؤدونه من مراسم دينية ، تستلزمها عملية (تنقية القلب) من الأدران الدنيا ، بالضراعة إلى زجريوس ، رب الأرباب ، الشرف من عليائه على الكون ! والتطهير ومراسمه لب لباب الأرفزم

وقد أثبتت دراسات الأساتذة الألمان كارل مللر ونوك وكنكل وغيرهم أن شاعر كورنثه فيما قبل التاريخ (يوميلوس) كان يدين بالأرفزم ؛ وأنه تبتل إلى ديونيزوس فى نشيده الجميل (يوروبيا) تبتلاً ؛ وقد أثبت فى هذا النشيد ما كان فى الأزل من اعتداء التيتان على زجريوس وقتلهم إياه ، وتعرض أيضاً للرؤى والأحلام ، وخاض فى ذكر هيدز (الدار الآخرة)

أما أثر الأرفزم فى الألف سنة التى تبدأ بالقرن السادس ق . م فواضح أشد الوضوح ، وهو على أتمه فى پندار وهيرودوتس وصولون ، ولا يخلو شيخ الملحدين يوربيديز من أثارة منه ، وقد تأثر به كل من سوفوكلس ، وإسخيلوس ، وتأثرت به الاسكندرية كذلك

* * *

أما هذه الكثرة المدهشة من آلهة اليونان ، فقد سلسلها لنا الشاعر هسيود فى منظومته الرائعة (الثيوجونيه)[1] ، وهى بكلمة خاصة أولى ؟

دريني خشبة

(١) الثيوجونيه تعنى علم نشوء وتوالد الآلهة

صدر حديثاً :

أحاديث حبي

تأليف الآنسة :

سهير القلماوي

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

بشارع الكرداسى رقم ٩ (عابدين) بمصر

ومن مجلة الرسالة

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ٦ قروش عدا أجرة البريد

وزارة المعارف العمومية

اعلان مسابقة

عن الحاجة إلى كتب للمدارس الصناعية

تعلن الوزارة عن حاجتها الى طائفة من الكتب توضع وفقاً للمناهج الجديدة المقررة للمدارس الصناعية — وتقدم للوزارة فى ميعاد غايته ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٥

وبيان هذه الكتب وشروط المسابقة موجود بأدارة مخازن الوزارة بالقاهرة . ويمكن طلبه منها أو الاطلاع عليه بها أو بعدد الوقائع المصرية نمرة ١٤ الصادر فى ١٤ فبراير سنة ١٩٣٥